# المنهج الجينيالوجي بين تقويض الميتافيزيقا والممارسة الإبداعية

**الباحثة: خيرة بن حراث**
**إشراف أ. د. أنور حماده**
**مخبر الفلسفة وتاريخها ـ جامعة وهران 2**

***Abstract***:

*Greek metaphysics emphasized on all what is absolute, then it detested history, its passion for truth and idealism to prevent attention to history; because historical truth is relative in a permanent process; besides Plato there was Aristotle (384 BC - 322 BC). Even if he disagreed, He did not include it in science. He decided that "poetry is closer to science than it is." Thus, the meaning of history became rigid, whereas in Descartes philosophy (1596-1650), it made certainty in the mind and truth in geometry. And classified in the science of memory, and then came Vico and insist on the importance of history until the rose of the philosophy of history by Voltaire.*

***Keywords***: *philosophy of history, Metaphysics, Greek philosophy, poetry, genealogy.*

الميتافيزيقا اليونانية بتأكيدها على المطلق تمقت التاريخ، فشغفها بالحقيقة والمثل الأعلى منع الاهتمام بالتاريخ، لان الحقيقة التاريخية نسبية في صيرورة دائمة؛[1] والى جانب **أفلاطون** نجد **أرسطو (384 ق.م-322 ق.م)** حتى وان خالفه الرأي فقد أحطّ من قدر التاريخ، ولم يدرجه ضمن العلوم، فقرر أن "الشعر اقرب إلى العلم منه"،[2] وهكذا أصبح معنى التاريخ جامدا، أما عند **ديكارت** (1596-1650) كونه جعل اليقين في العقل، والحقيقة في الهندسة، فانه لم يول للتاريخ أهمية، خلافا **لبيكون** الذي تبنى التاريخ وصنفه ضمن علم الذاكرة، ثم جاء **فيكو** ومهّد الطريق لأهمية التاريخ لتتشكل فلسفة التاريخ على يد **فولتير.**

بالبحث عن روح التاريخ في العصر الحديث من خلال **كانط** (1724م–1804م) **وهيغل** (1770-1831) و **كارل ماركس** (1818- 1883) بلغ العقل البشري أقصى ما يمكن من تصور وتجريد، حتى

صارت نهاية التاريخ منطقية؛ لأنها محكومة بإرادة متعالية، وهذا ما سماه **نيتشه** (1844-1900) بالانحطاط، تاريخ الهروب؛ والسبب في ذلك الميتافيزيقا بمواضيعها الفلسفية والأخلاقية والدينية، حينئذ أحدث نيتشه تغييرا في معنى التاريخ السابق، محددا بذلك منهجا في البحث التاريخي مبينا الأسباب المتحكمة فيه، منتقلا من الحس التاريخي إلى التفريق بين الغاية والأصل وصولا إلى صورة التأويل فأحدث قطيعة فكرية مع الميتافيزيقا، أدت إلى قلب الفلسفة هيكلا ومنهجا ومهمة، لفتح أفق جديد في التفكير ومنعطف فلسفي منهجي.

**فكيف تم تجديد الوعي التاريخي الغربي؟ وما المنهج المعتمد لدراسة الأفكار والمفاهيم؟ وكيف يتم ممارسة هذا المنهج؟، وبعبارة أخرى: كيف تم تقويض الميتافيزيقا ورفض منطق التاريخ وتجاوزه بالممارسة الجينيالوجية؟، كيف يمكن إثبات أن المنهج الجينيالوجي هو الأساس لإنتاج وإبداع أفكار ومفاهيم فلسفية من خلال ممارسته اعتمادا على نموذج نيتشه؟.**

الجينيالوجيا Généalogie لها دلالات متعددة ومتطورة، فهو قديم الاستعمال لكن أعيد تداوله في الفكر الفلسفي المعاصر والفضل في ذلك راجع إلى الفيلسوف الألماني نيتشه، فهل واصل نفس المعنى الذي كان سائدا من قبل أم غيّر فيه؟.

ظهر مصطلح الجينيالوجيا في اللغة الفرنسية خلال القرن الثالث عشر ميلادي، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية Généalogie المتداولة آنذاك والمنحدرة بدورها من الكلمة الإغريقية GENEALOGOS، وتعني كلمة géné في اللغة الإغريقية الأصل ORIGINE بينما تعني كلمة LOGOS علم، أما فعل GENEOLOGEIN فيدل على ذكر الأصول وتعدادها[3]، وقد تم تداول الكلمة المركبة في اللغات الأوروبية التي كانت تدل على سلسلة الأسلاف الذين تربطهم قرابة نسبية قد تنحدر من الأصل المشترك الواحد مشكلة شجرة النسب لأسرة أو اشخص ما كما كانت تدل أيضا على العلم المتخصص في البحث عن الأصول ونسب العائلات، فهذا الاستعمال به هذا المضمون موجود في كل الثقافات البشرية، وبالأخص في الأسطورة، فثلاثية الأساطير اليونانية تحدثت بشكل واسع عن روابط النسب والقرابة التي تربط الآلهة والكلمة المتداولة في هذا السياق هي Théogonie.[4]

وتطور المفهوم خلال القرن 17م ليدل في الثقافة الغربية الحديثة على فرع من فروع علم التاريخ له مناهج خاصة به، مهمته إقامة شجرة الانتماء والنسب، ويترجم مصطلح Généalogie في اللغة العربية بعلم الأنساب ومهمته تتبع ودراسة القرابات والنسل في الأسرة الواحدة أو السلالة الواحدة، ثم اتسع المصطلح تدريجيا في بداية القرن التاسع عشر، فلم يعد مجال دلالتها محصورا في ميدان التاريخ لأصول الأفراد والأسر فحسب، بل امتد ليشمل تاريخ تطور الحيوان والمؤسسات والأفكار، وهذا ما ظهر مع العالم البيولوجي الانجليزي **شارل داروين** "1809-1882" من خلال نظريته عن أصل الأنواع الحية وتطورها، وكان لها تأثيرا على الفكر الغربي في منتصف القرن 19م، ومن المرجح أن نيتشه تأثر بها فكتب كتابة **"جينيالوجيا الأخلاق"** الذي نشر عام 1887، فكان له الفضل في تداول المفهوم في الحقل الفلسفي المعاصر،[5] وظهور بداية جديدة في الخطاب الفلسفي المعاصر نظرا لتغير دلالة المفهوم مع نيتشه.

وبعدئذ أصبح معنى الجينيالوجيا في الخطاب الفلسفي عموما تتبع أصول موضوع ما أو فكرة، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لظهوره ونشأته وتطوره، ليس الغاية منه تبريره وإضفاء طابع المعقولية والمشروعية كما كان سائدا، وإنما انتقاده وإبراز طبيعته النسبية لغاية الحط من قيمته المعطاة له؛ لأن "الجينيالوجيا لا تقيم الأسس، أنها لا تؤسس، بل على العكس من ذلك إنها تقلق ما تعتقد الميتافيزيقا ساكنا وتفتت ما تظنه موحدا، تظهر التنوع في ما يبدو منسجما"،[6] وهكذا فالجينيالوجيا ليست تتبعا وعرضا لمختلف الأنساق الميتافيزيقية لتقويضها، كما أنها ليست إثباتا لمعنى أول أو غاية أولى، وإنما هي إعادة بناء مختلف المنظومات الفاعلة، واثبات للأولويات والأسبقيات التي أعطيت لمعنى على أخر، إنها وقوف عند الاختلافات والفوارق المولدة للمعاني".[7]

خلاصة فإن للجينيالوجيا ثلاث دلالات تطورت تاريخيا، وهي أولا دراسة سلسلة الأنساب والأسلاف والسلالات العرقية وهي فرع من فروع المعرفة المساعدة لعلم التاريخ عند المؤرخين، وثانيا فهي تدل على تتبع أطوار نشوء الأنواع الحية ومراحل تطورها، وهذا من اختصاص علم البيولوجية، أما ثالثا فإنها نوع من التفكير الفلسفي النقدي يثير تساؤلات عن أصل نشأة القيم الأخلاقية، والذي دشّنه نيتشه وخصصنا الحديث عنه، وقد تولّد عنه جينيالوجيا الأفكار الممارسة في الفكر الفلسفي المعاصر، إذا إن دلالة المصطلح أصبحت وظيفتها التنقيب والتقصي التاريخي في حقل الاستنساب، مما يجعلها نقدية، غايتها تبيان أن الإنسان متناه ودعائمه الأخلاقية والثقافية تاريخية ونسبية.

يتطلب المنهج الجينيالوجي شروطا ومراحل أساسية أشار إليها نيتشه في كتابيه "إنساني مفرط في إنسانيته" و"جينيالوجيا الأخلاق"، عندما أكد على ضرورة التحرر الكبير للعقل المستعبد بالواجبات والقيم القديمة المبجلة أي زعزعة الروح، ليصير العقل حرا ويزداد تحررا إذا وضع في ذهنه أن الفضائل مجرد أدوات يتحكم فيها الإنسان،[8] كما يجب عليه أن يتحرر أيضا من الأحكام المسبقة الدينية أو الأخلاقية أي التحرر من وهم الحكم الأخلاقي والديني المسبق والتموضع وراء الخير والشر، لأنه ليس هناك حقائق أخلاقية ودينية لان الأخلاق علم أعراض،[9] زيادة على ذلك التحرر من روح العصر وثقافته وذلك لتحقيق اكبر قدر من الموضوعية، فالأحكام تتم من الخارج بمعزل عن الآراء المسبقة. يقول نيتشه: "نسمي مفكرا حرا ذلك الذي يفكر بطريقة مخالفة لما كنا ننتظره منه، بسبب أصله وسطه حالته ووظيفته أو بسبب الآراء السائدة في عصره"،[10] وهكذا فان طبع المفكر الحر التحرر من التقاليد، كما يريد البراهين على عكس العقل المستعبد الذي يريد المعتقدات ويقوم على الإيمان أي "الاعتياد على مبادئ فكرية مجردة من الحجج".[11]

من بين الآراء المسبقة نجد الأخطاء الأربعة الكبرى للعقل، أولها عدم التمييز بين العلة والمعلول، وهو اخطر الأخطاء وأكثرها قدما ومعاصرة مثلا اعتبار الفضيلة سبب السعادة، وثانيا يجب تجاوز خطا سببية غير مؤكدة بالبحث عن مبدأ السببية في الشعور وتحديدا في الإرادة أما خطا العلل الوهمية فان الفيلسوف لا يتجه إلى العلة مباشرة وإنما إلى ما يصاحبها ويعدها علة أساسية فيبتعد الباحث عن الأسباب الحقيقية نظرا للتعود على بعض التأويلات السببية، ثم أخيرا خطأ التفسير النفسي لما سبق، حينما يسعى الإنسان إلى الخروج من المجهول إلى المعلوم بسبب الخوف فيؤمن بالتفسيرات التي تطمئن وتريح فكل علة يجب أن تكون معلومة ومريحة غير مجهولة ولا غريبة،[12] وبعبارة موجزة يجب التحرر من التفسيرات الميتافيزيقية الدينية والأخلاقية السائدة لأنها تقدم له فيضا من المعنى في الأشياء وتشعره بعدم المسؤولية، على عكس "التفسيرات المادية والتاريخية التي تؤجج تحمسه للحياة ومشاكلها".[13]

بعدما يتحرر العقل من الأثقال والأوهام التي جعلته جملا يصير أسدا محطما للأصنام انطلاقا من الشك والنقد، وفي هذا الصدد يقول نيتشه: "إنني اعتقد أنا أيضا انه لا احد قد نظر إلى العالم بشك في عمق شكي"،[14] وفي نفس السياق يقول أيضا: "إنني احتج ضد هذه الفكرة بقرف وانزع عنها كل ثقة"،[15] يعني ذلك عدم الإيمان بفكرة البداهة والوضوح فمثلا اعتقد اغلب الفلاسفة على أن الأخلاق أمر معطى بديهي لا يقبل الشك، وهذا ما طرحه نيتشه بقوله: " كانت قيمة القيم أمرا معطى واقعيا بمنأى عن كل شك وتساؤل.

فقد أضفي على الطيب قيمة أرفع من القيمة التي أضفيت على الخبيث دون أن يتخلل ذلك الإخفاء خردلة من الشك"،[16] بالإضافة إلى الفضول والظنون حول الأحكام المسبقة التي تدفع إلى المجازفة والمقارنة والتمييز بين الشعوب والعصور وتراتبية الناس، ويترتب عن ذلك تحديد مواطن الخصوصية في المشكلة، وتحول الأجوبة إلى أسئلة جديدة، ثم طرح الفرضيات المشكلة للموضوع، التي تتطلب حرية التعبير واللغة الخاصة أي المفاهيم المتعلقة الخاصة بالميدان.[17]

لكشف القيم وإبراز قيمتها وإعادة تقييمها لابد من البحث عن الأسباب الخفية المتحكمة فيها، وهذه مهمة فلاسفة المستقبل أصحاب العقول الحرة تتطلب الجرأة الفكرية والشجاعة النفسية والقدرة على المجازفة، وأيضا المقارنة لطرح قضايا جديدة بنظرة نقدية حيث يصرح نيتشه مؤكدا على ضرورة "التجوال في صقيع الأخلاق تجوالا يطرح كمية من المشكلات الجديدة التي ينظر إليها بأبصار جديدة"،[18] فالتجوال يساهم في اكتشاف أنماط جديدة وقضايا جديدة مختلفة تمتاز بالنظرة الثاقبة واللاتحيز، والوعي التاريخي لتطور القيم،[19] كما يجب أن تتميز الأفكار بالنضج والوضوح والصلابة والإتقان، وأيضا الامتزاج والتداخل وتكون اللغة واضحة والمفاهيم دقيقة، "تلك هي وسيلة التفكير الوحيدة التي يخلق بالفيلسوف أن يتبعها"،[20] وهكذا يمكن "اعتبار الحقائق البسيطة والمحتشمة المكتشفة بمنهاج صارم أسمى من الأخطاء البراقة الموزعة للسعادة التي مصدرها قرون وناس لهم عقل ميتافيزيقي وفنان".[21]

فضلا عن ذلك يجب اليقظة والتنبه إلى افتراضات مبنية على الفراغ، بالاعتماد على الوثائق "اللون الرمادي" أي ضرورة المعرفة التاريخية للنصوص،[22] وذلك عن طريق فقه اللغة أي الفيلولوجيا لدراسة النصوص القديمة كما هي في أصلها الأول وبدايتها الأولى لكشف أسباب نشأتها وظروف تشوه معناها الأصلي وتحديد الإرادة المتحكمة فيها والمتخفية من ورائها أي نزع القناع، ومن هنا أكد نيتشه على الحس التاريخي الذي غاب عن الفلاسفة وبالأخص الانجليز، بحقدهم على فكرة الصيرورة وتجيد القضايا بتجريدها من تاريخها، فطريقة تفكيرهم منافية للتاريخ، كما أكد على ضرورة الاعتماد على الاشتقاق اللغوي في دراسة المفاهيم والأفكار،[23] بقوله "ثم ما لبثت بعض الأمور المتعلقة بتربيتي التاريخية والفيلولوجية وهي لا تخلو من بعض الفطنة الفكرية الحساسة بالنسبة للمسائل النفسانية بشكل عام".[24]

تكمن غاية الجينيالوجيا في الاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل، فقد قال نيتشه: "فهم الأصل يحد من شأن الأصل"،[25] حينها يدرك أن القيمة المعطاة للأصل مجرد قناع يحتاج إلى تأويل، "ومعنى البحث

في الأصل هو العودة إلى الوراء لإلقاء النظرة التاريخية على ماهية الشيء للحصول عليه وهو في نقائه الأول"،[26] تساعد على الكشف عن تحول الماهية أو الظاهرة وأشكال التنكر، الجينيالوجيا لا تقوم على تصديق الميتافيزيقا وإنما إصغاء للتاريخ، فليست بداية الأشياء وأصولها كاملة، والبحث عن الأصل معناه في الأخير الشروع في إماطة اللثام عن هوية أولى، وبعد العودة إلى الأصول الأولى نقوم بالتحليل والتفكيك يتبين لنا القوة المتحكمة في هذا الأصل.

الجينيالوجيا تحليل للأفكار لاكتشاف القوى الفاعلة وتفسير النشاطات الفعلية، حيث يجب البحث عن القوى المستولية على الأفكار وأيضا الإرادة التي تعبر عن نفسها فيها وتختفي فيها في نفس الوقت، فتصبح بحث عن استراتيجيات الهيمنة، وهذا كله لعبة إرادات، "والتاريخ عنده ليس تقدما لعقل كوني وإنما لعبة الانتقال من سيطرة إلى أخرى"،[27] وهذا ما ينطبق على العلم، "فالعلم هو الأخر يتقنع خلاف قناع الموضوعية التي يخفي وراءها رغبات ميتافيزيقية وأخلاقية ودينية".[28]

من خلال تحليل الأفكار تظهر لنا حقيقة الأشياء التي كانت تختفي وراء الأقنعة، هذا ما كان مجسدا عند **سيقموند فرويد** اعتمادا على منهج التحليل النفسي الذي يكشف عن الكامن المتمثل في المكبوتات؛ وعليه فان الجينيالوجا تسعى إلى نزع الأقنعة وإظهار الحقيقة، وبما أن وظيفة الجينيالوجيا نقدية؛ لأنها تقدر قيمة الأصل، وكذا الخطاب التاريخي لا يعبر عن حقيقة مثالية، بل هو خدمة سلطة ذات مستوى منحط أو رفيع؛ إذن "قراءة التاريخ مرهون باكتشاف الأقنعة والكشف عنها لاسترجاع الاستخفاء الذي كان وراءه كانكشاف"،[29] فالعودة إلى الوراء من أجل تقصي الأسباب الحقيقية الخفية للقيم وكذا معرفة ظروف ولادتها وكيفية تشوهها عبر التاريخ، وعليه فإن الجينيالوجيا كشف وتعرية ونزع الأقنعة لتحديد قيمة القيم والقوى المتحكمة فيها ومن ثم إبراز نوعية النموذج المنتصر ونتائجه الواقعية حضاريا وثقافيا وفكريا.

انطلاقا مما سبق يعرض نيتشه منهجا جديدا في الفلسفة النقدية تهدف إلى إعادة النظر في جميع القيم السائدة في الثقافة الغربية الحديثة أي إعادة تقويمها وإبراز طبيعتها، ولممارسة وتطبيق المنهج الجينيالوجي لابد من الاعتماد على المراحل الآتية:

**1ـ العودة إلى الوراء: (فن التفسير)** وتعني تتبع مراحل نشأة المفاهيم والقيم والتطور دلالتها لا من حيث تسلسلها المنطقي والعقلاني كما حدث مع هيغل، بل على اعتبار أن القيم الأخلاقية والأفكار ليست لها أصولا ثابتة متعالية خارجية، وإنما هناك شروطا واقعية وجودية مرتبطة بمطالب الحياة والمصالح الشخصية كامنة وراء

إنتاج المفاهيم وتطويرها عبر العصور، فالغاية من الوقوف عند البدايات والأصول ليس لكونها حقيقة الحقائق وإنما كنوع من الخطأ، وبهذا تصبح الجينيالوجيا العودة إلى بداية التاريخ أو الأصل والميلاد لكشف أسباب نشأته. العودة إلى الوراء بضع درجات والتحرر من الميتافيزيقا، وذلك بفهم التبرير التاريخي للحقائق بقدر فهم تفسيرها النفسي، فائدة الحركة إلى الوراء هي اكتشاف ما حققته الإنسانية من خلال النقد، أي العودة إلى منطلق الحلبة أي العودة إلى البدايات الأولى والأصل الأول.[30]

يجب تصحيح النصوص والتحدث إليها وتفسيرها تفسيرا فيلولوجيا أي فهم ما يقوله الكاتب وهذا ما عجز عنه العصر الوسيط، "لم يكن فنان الكلمة متواضعا كفاية لكي يؤمن بان ما يفعله ليس سوى تسمية الأشياء كان على العكس من ذلك يتصور انه بتلك الكلمات يعبر عن المعرفة السامية للأشياء"[31]، يجب الانتباه إلى الخطأ الكبير الشائع وهو الإيمان باللغة[32]، فكل نص له معناه الأصلي لابد من فهمه عن طريق التأويل والتفسير الفيلولوجي، إذ "لم تكتسب كل العلوم استمرارية وثباتا، إلا حين بلغ فن القراءة الجيدة أي فقه اللغة ذروته"،[33] فيجب التأثر بالصميم أثناء القراءة، والاعتماد على التأويل أي فن التفسير من خلال "رفع القراءة إلى مرتبة تجعلها فنا من الفنون".[34]

يجب أن يكون التفكير فنا دقيقا لإثبات سلطته غير متأثر بالظروف المعرقلة له، لكي يزداد العقل العلمي إلحاحا ويتجه نحو العلوم الطبيعية والتاريخ متجاوزا الميتافيزيقا،[35] كما ينبغي إن يمتاز بالذوق السليم والموضوعية، وأيضا الفضول والشعور المرهف بالتعاطف والحفاظ على التوازن، وكذا الدفاع عن الحياة والقضاء على كل الاستنتاجات التي تنفيها وتحط من قيمتها.[36]

لكل مفهوم جذره اللغوي يتوجب تقصيه لتبيان القوة المتحكمة فيه والمعنى السائد ومدى تطوره وتغيره عبر التاريخ، وعليه فإن العودة إلى البدايات ليس لاستعادة جذور الهوية والتراث، وإنما للتحطيم والهدم من أجل إنتاج اختلافها، وهكذا يتفكك الأصل بعد أن كان مجرد ذريعة أو سوء فهم ليس إلا مدخلا إلى العمق في فلسفة الأعماق، "إن كل عادة خرافية تولدت عن حادثة أسيء تأويلها تنتهي بان تفرض تقليدا يكون من حسن الخلق إتباعه والتملص منه يكون خطيرا مضرا بالجماعة أكثر من الفرد"،[37] ويجب التأثر بالصميم أثناء القراءة، والاعتماد على التأويل أي فن التفسير من خلال "رفع القراءة إلى مرتبة تجعلها فنا من الفنون".[38]

**2- النقد والجدل الاختلافي: (فن التقويم)** إن فلسفة نيتشه هي إعادة تقويم القيم وقلبها، بالسعي إلى تجاوز الميتافيزيقا في مواجهة العدمية الأوروبية التي أراد التغلب عليها انطلاقا من الجينيالوجيا، نقد الغرب وقلب الأفلاطونية ونقد العقل والفن والتأويل، ويعد هذا قلب للميتافيزيقا الغربية[39]، وحتى يتم هذا لابد من أن تكون فلسفة المعنى والقيم نقدية، ولتحقيق ذلك لابد أولا من إقامة جينيالوجيا للعدمية، من خلال مظاهرها الثلاث الإنسانية وهي: الحقد، والوعي الشقي، والمثل الأعلى الزهدي الذي يعد تركيبا وتصعيدا لهما، ويهيئ هذا التحليل التاريخي والسيكولوجي للعدمية القيام بقلب شامل وجذري للمثل والقيم العليا للغرب التي يدرجها نيتشه تحت مقولة الميتافيزيقا أو الأخلاق، من هنا نفهم الطابع النقدي للعمل الجينيالوجي".[40]

استمدت الجينيالوجيا طبيعتها النقدية من النقد الكانطي، لكنها في الأخير ارتدت ضده، "فأحد الحوافز لعمل نيتشه فيما يقول **دولوز** هو أن كانط لم يقم بالنقد الحقيقي، لأنه لم يعرف أن يطرح مشكلته باصطلاحات القيم"،[41] فهو لم يطرح قيمة الحقيقة ولا أسباب خضوعنا للحقيقي، وعليه فانه دوغمائي، بينما عند نيتشه تصبح فلسفة القيم هي الإنجاز الحقيقي للنقد وصنع الفلسفة بضربات المطرقة أي "ضربات مطرقة المعرفة التاريخية"،[42] ونقد الأصنام الأشد وثوقا و"ضربها هنا بضربات المطرقة"،[43] ولذلك يفيد فعل النسابة معنيين وهما: الانتساب من خلال إرجاع الفكرة إلى جذرها كوجهة إلى الوراء والماضي، وهذه وظائف الفيلولوجيا التي تمارس القراءة الحرفية، أما النسابة فهي متصلة بعلاقاتها مع الذات الإنسانية ومساءلة الأصنام التي كانت عبارة عن يقينيات، فتصبح مطرقة الفلسفة تحطيم الزائف والأجوف، "إذن الجينيالوجيا هي بمنظار فيلولوجي بحث المشاكل بحثا مفككا للغة عبر التاريخ"،[44] مؤسسا على تحليل نقدي للنصوص.

إن آلية الرجع *Resonance* بالتوجه إلى الوراء حيث تجعل الجدل والتأويل يسير قدما، فسؤال الجينيالوجيا: عمن تصدر الأحكام والقيم؟، من أجل رفض شرعية الجدل الذي يدعي قول الحقيقة ومنح الأولوية للكائن البشري الذي يشك، فيفكك التاريخ الميتافيزيقا من جذورها، على عكس الديالكتيك الهيغلي،[45] إن الجدل النسقي يقوم بعمل تراكمي، يجمع في التاريخ شكل هرمي منغلق، يندرج ضمن منطق الجدل الهيغلي القائم على الوحدة والكلية، حينها يسود منطق الشبيه ويختزل الاختلاف، وعلى العكس تماما فإن الجينيالوجيا اختلافية منطقها البحث عن الأصول، لا أحادية الأصل لأنها تدخل مع قوى متعدد، فيضع نيتشه مكان الجدل السلبي عنصر الاختلاف العملي، وعلى إثر هذا نتعامل مع الحقيقة كقيمة.

إن نتيجة القيم السائدة هو العدمية، لذا يجب قلب كل القيم دون مراعاة أصولها الأولى المتخفية وإعادة الاعتبار للإنسان خالق القيم، وذلك من خلال نقد القيم وإعادة طرح قيمة القيم، لمعرفة الأسباب التي أحدثتها وشوهتها،[46] لهذا يضع نيتشه الحس التاريخي "وهو العلم الذي لا يستند إلى مطلق ويفلت من قبضة الدين والميتافيزيقا ليكون الأداة المفضلة للجينيالوجيا، انه العلم الذي يمحو كل التقديسات التقليدية بغية تحرير الإنسان وعدم الحفاظ على الأصل الذي يتعرف فيه الإنسان على نفسه"،[47] عندئذ يصبح موضوع الحس التاريخي هو التاريخ الفعلي الذي تتحكم فيه صراع السلطات، فلا يخضع للعناية الإلهية أو العلة الغائية، وبالتالي رفض "نمط التاريخ الذي يكتب من أجل اختزال التنوع الزمني ورده إلى كلية منغلقة على ذاتها"،[48] من هذا المنظور ظهرت الجينيالوجيا كفن لقراءة تاريخ الأفكار، لتصبح فيما بعد "منهجية في البحث تعمل على الكشف عن تواري المفاهيم واختفائها، فرضتها الضرورة الناتجة عن تحطيم الآليات الكلاسيكية تكريسا للنقد المزدوج: نقد الفلسفة كمحتوى ونقد المنهجيات المتعالية كإستراتيجيات"،[49] ومنه فان الجينيالوجيا هي إعادة تقييم القيم وقلبها اعتمادا على التفسير والنقد والتأويل.

إن عمل الجينيالوجي هو إعادة التقييم واختراق الأنساق الدغمائية المعتمدة على أصنام الفكر، فهو لا يهتم بالتطابق والهوية وإنما بالصيرورة والاختلاف، وبعد تحليل وتفكيك هذه الاختلافات نصل إلى أن التاريخ صيرورة مستعصية على المعرفة الإنسانية، أما المعنى فيضيفه الإنسان وليس الإله، ففي نظر نيتشه فإن الإنسان الذي يخدم سلطة متعالية هو **إرتكاسي عدمي**، غير أنه من خلال النفي المضاعف يمكن تجاوز العدمية، أي نفي القوى الارتكاسية.[50]

*3-* **التـأويـل: (فن التشريع)** لا يمكن معرفة أي معنى لأي ظاهرة أو أي شيء إلا إذا تعرفنا على القوة التي تتملك الشيء أو تسيطر عليه أو تختفي فيه لتعبر عن نفسها فيه، والتاريخ هو "تعاقب القوى التي تستولي عليه، وتعايش القوى التي تصارع من أجل الاستيلاء عليه، كما أن الموضوع ذاته، والظاهرة ذاتها، يتبدل معناهما وفقا للقوة التي تستحوذ عليهما"،[51] وهكذا تتعدد المعاني، فيصبح التفسير فنا يخترق الأقنعة لأن الأصل لا يظهر في البداية ولا يمكن أن يتحدد إلا في علاقاته بالقوى العليا، إلا أن نيتشه يؤكد أن بعض الترجمات تكون نيتها سليمة إلا أنها تزيف الأصل، وذلك راجع في نظره إلى عجزها عن فهم المعنى العميق.[52]

على هذا الأساس يصبح البحث عن أصول القيم كشف عن الأقنعة دون بلوغ الحقيقة، لأن تاريخ الأفكار لعبة لا نهائية من التأويلات تختفي وراءها دائما إرادة القوة التي تفرضها، فالقيمة ذاتية نابعة من

إرادة القوة WILL TO POWER، إن المنهج الجينيالوجي يعتمد على التحليل التاريخي النقدي المقارن، وأيضا التفسير السيكولوجي والفيزيولوجي للقيم، فالملاحظة النفسية وفن التحليل والتنظيم النفسيين ضروريين للتفسير،[53] كضرورة التفسير الفيزيولوجي الذي من خلاله ارجع نيتشه سبب سلبية المواقف الفلسفية إلى العجز عن الفعل، زيادة على ذلك فقد اكتشف نيتشه أن أصل القيم الأخلاقية حقد العبيد على السادة والخوف من القريب والغرائز القوية، ونظرا لعجزهم على الفعل المباشر اتجاه الإساءة تم كبتها كأثر ولم تنس، ثم تطورت إلى انتقام خيالي وحقد دفين، حيث لجأوا إلى الحيلة والمكر لقلب القيم من اجل السيطرة على السادة، حينها انتصرت القوى الارتكاسية بفعل ثورة العبيد التي بدأت مع اليهود، وعليه فإن الخوف أصل الأخلاق.

في هذا السياق الجينيالوجي يعد التراكم في ميادين تاريخ الفكر ضربا من العبث، لذا أصبح من الضروري إبراز ظاهرة الانفصال في التاريخ، "ولن يتحقق ذلك إلا بقلب القيم السائدة برفض القيم الميتافيزيقية الفلسفية أو الدينية لتصبح إنسانية طبيعية،[54] واختلاف المسافة داخل الأصل في البدايات الأولى يجعل العالم تعبيرا عن الصيرورة، وهنا نلاحظ تأثره بأنكساغوراس وهيرقليطس، الحواس تكشف عن الصيرورة أنها لا تكذب هذا ما عبر عنه هيراقليطس حينما أكد على أن العالم الحقيقي سوى وهم وكذب تم إضفاؤه عليه،[55] لأن " كل شيء ينتج عن الصيرورة"،[56] أي لا وجود لشيء في ذاته ثابت بل الحقيقة نسبية. الفلسفة التاريخية اكتشفت أن أساس تعارض الثنائيات الميتافيزيقية هو خطأ العقل، فكل مفهوم تم تصعيده حيث لم يعد يظهر العنصر الأساسي إلا بعد الملاحظة الدقيقة "إن الإنسانية تحب أن تطرح من بالها أسئلة الأصل والبدايات"،[57] أي أن هذه الدراسات منافية للتاريخ كونها سطحية.

ومن هذا المنطلق لابد من تأويل كل الخطابات، فالتأويل إبداع يفتح الآفاق لكشف الأسباب الخفية والقوى المتحكمة في خلق القيم، يجب على الذات أن تخلق القيم بإرادتها من خلال عملية التأويل؛ فالمعنى ليس مطلقا وإنما يتعدد نظرا لتعاقب المعاني بفعل صراع التاريخ وصيرورته؛ لهذا يمكن للإنسان يتجاوز العدمية بالإبداع، إذا اعتمد على إرادة القوة المتحكمة بدورها في عملية التأويل؛ لأن ما يتستر وراء كل معنى هو إرادة القوة، والجينيالوجيا تحاول أن تربط معاني الواقع بالمنظورات أو التطلعات التي تعطيها قيمه، وهي تدرك التطلعات من حيث هي إرادات قوة متفاضلة،[58] ومنه فان الجينيالوجيا هي "العلم الذي يتحرى أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية ومهمته طرح المشاكل الاجتماعية المعقدة".[59]

وضع أحد الباحثين ثلاث مستويات للنقد الجينيالوجي وهي أولا **المستوى السيميولوجي** حيث يتم تفكيك شيفرات النصوص والخطابات كونها مجموعة من العلامات والرموز، بإرجاعها إلى القوى التي صدرت عنها أو استعملتها أو استحوذت عليها، ثم ثانيا **المستوى التيبولوجي** حيث يمكن تقويم القوى انطلاقا من اعتبارها فاعلة أو منفعلة، بعد ترتيبها وتنظيمها ضمن نموذجي القوى: الارتكاسي والفاعل، وأخيرا **المستوى الجينيالوجي** "وفيه يتم الصعود بتلك النماذج إلى أصولها التفاضلية وتحديد قيمتها... يسعى النقد الجينيالوجي بما هو نقد للميتافيزيقا من الداخل إلى تفكيك الإجراءات الكبرى للخطاب الميتافيزيقي"،[60] انه تفكيك للثنائيات الميتافيزيقية.

تتداخل الجينيالوجيا مع الأركيولوجيا في وممارسة الحفريات بضربات المطرقة، حيث تهتم الجينيالوجيا بالاستفسار عن الشروط الخارجية والأسباب المتحكمة في الأفكار، فإنها تدفع إلى ضرورة قراءة النصوص ودراستها وفك رموزها وتأويلاتها، وبما أنها تهتم بالتأويل والنقد والتفكيك استقت منها الكثير من الاتجاهات الفلسفية المعاصرة طريقتها في النقد والتحليل، فعند **هيدغر** يظهر الحس التاريخي، أما عند **سيقموند فرويد** فإن التأويل راجع إلى دوافع لا شعورية تحتاج هي أيضا إلى تأويل، والعملية لانهائية تؤكد استحالة الوصول إلى حقيقة أولى، ويظهر منهج النقد والتحليل عند الفيلسوف الفرنسي **ميشال فوكو**(1926_1984) بتأكيده على أولوية التحليل الجينيالوجي بطرح تساؤلات نقدية حول التاريخ، والنتيجة التي توصل إليها هي أن التأويل لا يصل إلى الدلالة الأصلية المتخفية داخل الفكرة، فالاختلاف الجوهري بين "**نيتشه**" و"**فوكو**" عموما هو أن الأول لا يؤمن بأصل قط، بينما يؤكد الثاني على الإيمان بأصل ما، هو مصدر مسبق وموجود لكن لا يمكننا تحديده، لأن الإمساك بكينونة الإنسان متعذرة ولا يمكن البرهان على هذه الحقيقة بالبحث عن المصدر، وبالتالي الاعتراف بالفشل في إيجاده.

تشترك الجينيالوجيا مع الأركيولوجيا في اعتمادهما على الحس التاريخي؛ ذلك أن الحفريات تتعمق في الحقائق وتفككها لإبراز أصلها الأول[61]، ويتم التحليل الحفري وفق عمليتي النقد والجينيالوجيا، فالنقد يحلل سلسلة الخطابات والجينيالوجيا تحدد الأسباب المتحكمة فيها[62]، ومن مبادئ التحليل الحفري تحليل اختلافات الخطاب ووجوهه، وسعي إلى تحديد أنماط وقواعد الممارسات الخطابية التي توجه الآثار الفردية، وأخيرا وصف منظم لخطاب يجعل منه موضوع[63]، وإذا أرجع نيتشه أصل القيم إلى إرادة القوة فان **فوكو** يرجعها إلى السلطة.[64]

خلاصة فان الإنسان لن يبلغ الحقيقة لأنها تتخفى عنه، مما يجعل البحث مستمرا لاتصاف التاريخ بالصيرورة والأحكام بالنسبية، ليكشف الجديد الذي يسعى التفكيك إليه من خلال استذكار الاختلاف المنسي، إن الجينيالوجيا بحث الأسباب بممارسة التأويل والدليل على ذلك تطور هذا المفهوم في فكر نيتشه من: **"إنسان مفرط في إنسانيته"** فكان عبارة عن حس تاريخي ثم في كتابه **"جينيالوجيا الأخلاق"** أصبح عبارة عن تفريق بين الغاية والأصل، وأخيرا في **"إرادة القوة"** يظهر في صورة تأويل، كما أن جميع القيم نسبية، هذه فقط الحقيقة المطلقة الجديدة؛ لذا يجب على الفيلسوف أن يبحث عن الحقيقة المتخفية وراء الأقنعة جينيالوجيا، وهذه العملية تبقى مستمرة.

أخيرا فان المنهج الجينيالوجي يهتم بتقييم القيم والحقائق التاريخية، ويتم هذا بالاعتماد على مراحل، أولها الحس التاريخي حينها ندرك أن الأصل والمعنى في صيرورة، وليس كما كان يعتقد أنصار الميتافيزيقا بادعائهم أن الحقيقة التاريخية مطلقة، وثانيا النقد والتأويل حيث يتم بالتفكيك من خلال الجدل الذي يحكم التاريخ الفعلي، فمن خلالها نجد أن التاريخ لعبة إرادات، حيث تختفي الأقنعة وراء القواعد والأحكام، لذا يجب على الإنسان أن يتحرر من هذه اللعبة، بفهمها والسيطرة عليها من خلال صنع قيم هو خالقها وفق ما تمليه عليه إرادته القوية، وان ينقد كل ما يأتيه من الخارج وإعادة قلبه وتقييمه وفهم أسبابه، والغاية من هذا كله هو تجاوز العدمية وتحقيق الإبداع والتجديد من خلال إعادة إنتاج الأصل كما رأى **غادامير.**

نستنتج مما سبق بان المنهج الجينيالوجي هو المنهج الشامل الملائم؛ لأنه يشمل العديد من المناهج، كما انه ملائم لدراسة الظواهر الإنسانية بأبعادها الاجتماعية والنفسية والتاريخية موضوعيا، كما يمكن ممارسة المنهج الجينيالوجي على التراث من خلال العودة إلى النصوص القديمة اعتمادا على الحفريات، ومن اجل تقصي المعنى الأصلي نبحث عن المتخفي وراء الأقنعة والأسباب المتحكمة في ظهور معنى واختفاء معنى آخر، وهذا لا يتم إلا بعمليتي **النقد** الذي يكسر الأصل المزيف، **والجدل الاختلافي** الذي يساهم في تقريب المعنى دون حصره؛ فتصبح القراءات متعددة وإبداعية، وبتتبع العملية التأويلية يضفي كل إنسان قيمه ويسقط كل أفكاره على النص التراثي وفق شروط منها التحرر من سوء الفهم والأحكام المسبقة السلبية؛ وعلى اثر هذه المراحل تصبح الجينيالوجيا مفتوحة تساعد على فتح الأفق لتجاوز العدمية.

[1]–النشار مصطفى، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، دس، ص52.

[2]- نقلا: المرجع نفسه، ص 52.

[3]- حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع ، عمان، ط1، 2009، ص157.

[4]- المرجع نفسه، ص 157.

[5]- حسيبة مصطفى،المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 158.

[6]-المرجع نفسه، ص159.

[7]-عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت ،ط1، 2010، ص 331.

[8]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،ج1، ترجمة: محمد الناجي، المؤسسة أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2002، ص 11-14.

[9]- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، د س، ص 57.

[10]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر نفسه، ص 128.

[11]- المصدر نفسه، ص 129.

[12]- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص 45-51.

[13]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 25.

[14]- المصدر نفسه، ص 09.

[15]- نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، د س، ص21.

[16]- المصدر نفسه، ص14.

[17]- المصدر نفسه ، ص11.

[18]- المصدر نفسه، ص15.

[19]- المصدر نفسه، ص15.

[20]- نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص03.

[21]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 18.

[22]- المصدر نفسه، ص15.

[23]- المصدر نفسه، ص24.

[24]- المصدر نفسه، ص10.

[25]-نقلا: بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1،2004، ص 34.

[26]-المرجع نفسه، ص 35.

[27]- بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص 36.

[28]-نقلا: المرجع نفسه، ص30.

[29]- المرجع نفسه، ص 36.

[30]- نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص 29.

[31]- المصدر نفسه، ص 22.

[32]- المصدر نفسه، ص 22.

[33]- المصدر نفسه، ص 151.

[34]- المصدر نفسه، ص17.

[35]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 152.

[36]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،،ج 2، ترجمة: محمد الناجي، أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2001، ص 08.

[37]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 63.

[38]- نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص17.

[39]- عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 273.

[40]- المرجع نفسه، ص324.

[41]- عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص291.

[42]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 41..

[43]- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص07.

[44]- بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص27.

[45]- دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ط1، 1993، ص 250.

[46]- نقلا: عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 305.

[47]- بن مزيان بن شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص34.

[48]-نقلا: المرجع نفسه، ص 145.

[49]- فوكو ميشال، جينيالوجيا المعرفة ، ترجمة : أحمد السطاتي، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988، ص58.

[50]- دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المرجع السابق، ص 252.

[51]- دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المرجع السابق، ص 08.

[52]- نيتشه فريديريك، ما وراء الخير والشر، ترجمة: جزيلا فالور حجار، مراجعة: موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2003، ص57.

[53]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 39.

[54]- صلاح قلنصوة، نظرية القيم في الفكر المعاصر، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2010، ص 158.

[55]- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص 27.

[56]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 18.

[57]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 17.

[58]-نقلا: عطية احمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 334.

[59]- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته،ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 41.

[60]- نقلا: عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص325.

[61]- فوكو ميشال، جينيالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، المصدر السابق، ص48.

[62]- جعفر عبد الوهاب، خطاب الفلسفة المعاصرة أداؤه و اشكالياته، المرجع السابق، ص 27.

[63]- فوكو ميشال، جينيالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، المصدر السابق، ص 132-133.

[64]- المصدر نفسه، ص06.